أم طالب

رضي الله عنها

obeikandl.com

obeikandl.com

فاطمة بنت أسد
أم طالب

قال لي ولدي: ومَن التي بُشِّرت بالجنة أيضاً يا أبي؟

قلت: إنها أم طالب وتدعى: فاطمة، والدها أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، وأمها فاطمة بنت هرم بن رواحة، وأما زوجها فهو أبو طالب بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ. وقد أنجبت لأبي طالب أربعة ذكور هم: طالب وعقيل وجعفر وعليٌّ، وثلاث إناث هن: ريطة وجمانة وأم هانىء.

قال: كيف تم اللقاء بين السيدة فاطمة بنت أسد ورسول الله ﷺ؟ ومتى تم ذلك يا أبي؟

قلت: بعد وفاة السيدة آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كفَّله جده عبد المطلب بن هاشم ولما حضرت عبد المطلب الوفاة دعا ولده أبا طالب وكفَّله محمداً ﷺ، وأوصاه به خيراً، وعلى الرغم من كثرة عيال أبي طالب فقد ضم ابن أخيه محمداً ﷺ إلى أولاده، وأوصى زوجه فاطمة برعايته والإحسان إليه، بعد أن فقد والديه وجده، وعانى من قسوة اليتم ومرارته الشيء الكثير.

قال: وكيف كانت معاملة فاطمة بنت أسد لليتيم

الحبيب يا أبي مع كثرة ما لديها من الأولاد؟.

قلت: لقد وقع حبه في قلبها، وأشفقت عليه، فقررت أن تعوضه عن عطف أبيه وحنان أمه، ولم تألُ جهداً ـ لم تقصر ـ في سبيل ذلك بل ربما أولته من رعايتها وعنايتها قسطاً أكبر مما أعطته لأولادها، حتى تخفف عنه وحشة غياب أبويه إن لم تستطع أن تنسيه وطأته.

وكانت أم طالب إذا أعدت الطعام، وجلس زوجها أبو طالب وأبناؤها لتناوله، فإن أول يد تمتد إليه كانت يد سيدنا محمد ﷺ، فإذا حان وقت الطعام وكان سيدنا محمد ﷺ خارج البيت انتظر الجميع قدومه؛ لأن مشاركته لهم في الطعام تبارك لهم فيه، وتملأ أنفسهم بالسرور وهم يأكلون معه، ولم يكن ﷺ ليبدأ بالأكل قبل أن يُسمّي الله ويثني عليه بما أنعم، وهكذا كانت البركة والخير لا تفارقان بيت أبي طالب بفضل هذا اليتيم المبارك ﷺ.

وكانت مشاعره ﷺ تجاه أم طالب لا تختلف عن مشاعر الابن تجاه أمه التي ولدته، أما هي فقد كانت ترى فيه أحد أبنائها، ولا أبالغ في القول إذا قلت: لقد كان أفضل أبنائها على الإطلاق. وكان ﷺ يحس أن حُسن معاملة أم طالب له إنما ينبع من ذاتها ورضاها تلقائياً، وبغير تَكلُّف، ولا إكراه، مما منحه شعوراً فياضاً بالسعادة والأمان بقربها.

قال ولدي: ألا تحدثني عما أصاب آل أبي طالب من بركة رسول الله ﷺ لعيشه معهم ووجوده بينهم؟

قلت: أجل يا بني، أما الطعام فكان لا يكفيهم إذا أكلوا

في غيابه، فإذا جلس معهم شبعوا بكمية قليلة، وكذلك الشراب، من الماء أو اللبن، كان أحدهم لا يرتوي إذا شرب قدحاً كبيراً منه، أما إذا شرب سيدنا محمد ﷺ قبلهم، ثم شربوا بعده، فإنَّ القدح يكفيهم جميعاً، ولم يخف هذا على أبي طالب فكان يلاحظه، ويصف ابن أخيه بأنه ولد مبارك.

وكان أبناء أبي طالب يستيقظون من نومهم صباحاً شعث الرؤوس، وفي أعينهم الرَّمَص ـ وسخ أبيض يظهر حول العين ـ وأما سيدنا محمد ﷺ فلا يناله شعث ولا رمص وكان وجهه حين يصبح يفيض نضرة وإشراقاً.

والمعلوم أن الأطفال في كل زمان ميَّالون للهو واللعب والتسلية، لكن سيدنا محمداً ﷺ كان يهتم بالنظر إلى ملكوت السماوات والأرض والتفكّر فيما خلق الله سبحانه وتعالى، ولا يشارك في اللهو واللعب أحداً، وهذا من فضل الله عليه، وعصمته من اللّهو والباطل، واللّغو والضلّال، وإضاعة الوقت كما يصنع كثير من الأطفال.

لقد أدرك أبو طالب وأم طالب أن سيدنا محمداً ﷺ ولد من طراز خاص ليس له بين لِدته ـ من هم في سِنّهِ ـ نظير، يؤثر الجد على الهزل ـ ويهتم بكل ما حوله، ويفكر فيمن خلق هذا الكون الفسيح، وبثَّ فيه من مخلوقات وأشياء تعجز عن حصرها العقول.

قال ولدي: أرجو أن تحدثني يا أبي عن إسلام أم طالب.

قلت: كبر رسول الله ﷺ وبلغ مبلغ الرجال، وأخذ يعمل

ويكسب المال من عمل ذات يده، ونظر إلى عيال أبي طالب الكثر، وإلى الضيق الذي يعاني عمه منه، فانطلق إلى عمه العباس ابن عبد المطلب وبحث معه الأمر ثم قررا أن يحدثا أبا طالب ويأخذ كل منهم واحداً من أولاده ليعيش معه، وبذلك يخف عبؤه، ويُوسَّع عليه وعلى بقية أهله.

ولما طرح رسول الله ﷺ وعمه العباس على أبي طالب ما وصلا إليه من قرار قال لهما: دعا لي عقيلاً وخذا من تريدان.

وأخذ رسول الله ﷺ علياً وأخذ العباس جعفراً، وهكذا أصبح وضع أبي طالب أحسن حالاً، وأخفَّ مؤونة.

ثم إن رسول الله ﷺ، ذهب في تجارة إلى بلاد الشام لسيدة قريش خديجة بنت خويلد، وعاد إليها بالربح الوفير الذي لم تشهد مثله من قبل، فقررت أن تخطبه لنفسها، فأرسلت إليه إحدى صواحبها، وقالت له أن يخطبها من أبيها، ولما عرض ﷺ أمر زواجه على أعمامه من سيدة قريش أيّدوا رأيه، ثم انطلق معه عماه أبو طالب وحمزة لخطبتها.

وتمَّ الزواج الميمون، ووجد رسول الله ﷺ في خديجة منبعاً من الحنان لا ينضب، وإخلاصاً منقطع القرين.

ولما أراد الله سبحانه وتعالى إكرامه بالنبوة، أرسل إليه سفيره جبريل عليه السلام برسالة الإسلام، وهو يتحنث ـ يعبد الله ـ في غار «حراء» فلما عاد إلى خديجة وروى لها ما جرى له مع جبريل آمنت به وصدقته وهدَّأت من روعه، وكانت نعم العون له.

ثم إن علياً آمن به وصدقه، وأخذ يصلي معه ومع خديجة

وشاع خبر الإسلام، ونزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فدعا رسول الله ﷺ قومه إلى أمر الله الذي يحمل إليهم خيري الدنيا والآخرة، ولبّت النداء فاطمة بنت أسد أمه التي ربته، فأسلمت مع أولادها ﷺ أجمعين ولم يترك أبو طالب دين آبائه.

وبدأت قريش تكيد لرسول الله ﷺ وتظهر له العداوة والبغضاء، غير أن أبا طالب كان يحميه من أذاها، فقد كان سيدها المطاع، لكنْ قريشاً بادرت إلى تعذيب أتباع رسول الله ﷺ وراحت تُنزِلْ بهم كل صنوف البلاء.

ولما رأى رسول الله ﷺ ما يعانيه أصحابه أمرهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة التي يحكمها النجاشي وأخبرهم أن فيها ملكاً لا يُظلَمُ على أرضه أحد، حتى يعبدوا الله في أمان وسلام، ويتغير الحال في مكة إلى أحسن ولم تتمكَّن فاطمة بنت أسد أن تخرج مع المهاجرين وتترك زوجها أبا طالب وأبناءها الصغار، غير أنها لم تستطع أن تحبس دموعها، وهي تودع ولدها جعفراً وزوجه أسماء بنت عميس اللذين قررا أن يخرجا إلى الحبشة مع المهاجرين المسلمين، وكانت فاطمة ترى في ولدها جعفر ما لا تراه في غيره من أولادها، فقد كان يشبه رسول الله ﷺ في خَلْقِه وخُلُقِه، وانطلق المهاجرون سراً إلى الحبشة، في غفلة من رقابة قريش وعيونها، فلمّا علمت بأمرهم قررت أن تفرض عليهم حصارها البغيض، وحصر بنو هاشم وبنو عبد المطلب في شِعَبْ أبي طالب، قرب مكة، ومعهم نساؤهم وأبناؤهم، حتى اضطروا إلى أكل ورق الشجر؛ لأنهم منعوهم الطعام والشراب، كما امتنعوا عن النكاح منهم أو إليهم واستمرت محنة الحصار ثلاثة

أعوام، وأصاب بعض من كانوا في الشِعَبْ المرض والوهن، بسبب نقص الغذاء، وندرة الدواء.

ثم انتهى الحصار وخرج الناس من الشِعَبْ بعد أن أظهروا من الجلَد والصبر والاحتمال ما تنوء به الجبال.

وكانت محنة الشِعَبْ على شدّتها، أخف وطأة مما جرى لرسول الله ﷺ بعدها، فقد توفي عمه أبو طالب فحزن عليه رسول الله ﷺ حزناً شديداً، وما هي إلا أيام يسيرة حتى فجع ﷺ برحيل أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها متأثرة بالمرض الذي نزل بها في حصار الشِعَبْ، وكان هذا المصاب أكثر إيلاماً لرسول الله ﷺ مما سبق.

إنها لفاجعة أليمة، أن يفقد عمه أبا طالب وكان له أعز نصير، وأن ترحل عنه زوجه خديجة وكانت له خير وزير، وأن يتم ذلك كله في أيام معدودات، وصبر معلم الناس الصبر على حكم الله وقضائه، ومَنْ أجدر منه بذلك، في مثل هذه المواقف؟ قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

وصبر رسول الله ﷺ، ولم يكن هناك من يستطيع احتمال مثل ما أصابه سواه. ولما أذن الله لرسوله الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة أعلم أصحابه بذلك وأخذوا يغادرون مكة في غفلة من عيون قريش ورقبائها، ويتخذون لهم من ظلام الليل ساتراً وغطاءاً.

وانطلقت أم طالب إلى المدينة مهاجرة بصحبة عدد من

المهاجرات، وبقيت تنتظر مَقْدَم رسول الله ﷺ، وفي الموعد المحدد لقدومه، كان المهاجرونَ والأنصار قد خرجوا جميعاً لاستقباله، وكانت فرحة أم طالب بوصوله كبيرة، وتحقق لأهل المدينة مع رسول الله ﷺ أجمل لقاء وأروعه.

وفي المدينة، كان رسول الله ﷺ شديد البِرِّ بأمه أم طالب التي رعته وأحسنت إليه، فكان يحرص على زيارتها، وربما قالَ ـ نام ـ في بيتها في بعض الأحيان، وكان زواج ابنها علي بن أبي طالب من بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء رضي الله عنها، قد منحها نصيباً وافياً من السعادة، وقسطاً موفوراً من البهجة والسرور، وراحت فاطمة بنت أسد تعامل فاطمة بنت محمد ﷺ وكأنها إحدى بناتها.

ولقد روي عن الإمام علي كرم الله وجهه أنه قال:

قلت لأمي فاطمة بنت أسد: اكفي فاطمة بنت رسول الله ﷺ سقاية الماء والذهاب في الحاجة، وتكفيك خدمة الداخل، الطحن والعجن، وكانت بنت أسد جِدَّ سعيدةٍ بهذا الاقتراح.

وكان رسول الله ﷺ إذا أهدي إليه شيء يخصُّ أم طالب بنصيب فيه، دليلاً على وفائه لها، وعرفاناً بجميلها. يقول ابنها علي رضي الله عنه: أهدي إلى رسول الله ﷺ حِلة إستبرق، فقال: «**اجعلها خُمُراً بين الفواطم**».

يقول علي: فشققتها أربعة أخمرة، خِماراً لفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وخِماراً لفاطمة بنت أسد، وخِماراً لفاطمة بنت حمزة، ولم يذكر الرابعة.

وقد نقل عن ابن حجر قوله: ولعلها ـ أي الرابعة ـ امرأة

عقيل بن أبي طالب، واسمها: فاطمة بنت شيبة [أسد الغابة رقم ٧١٧٢] والإصابة [٤/ ٣٧٠].

وهذا التكريم من رسول الله ﷺ لأم طالب، دليل على مودته لها وبِرِّه بها.

وليس أسبق من رسول الله ﷺ، من أحد في هذا المضمار.

ولقد أفاض رسول الله ﷺ في تكريمها، إظهاراً لمكانتها، وإقراراً بفضلها.

وكان ذلك منه ﷺ في حياتها، كما هو في وفاتها، فقد ذكر السمهودي: أن النبي ﷺ لم ينزل في قبر أحد إلا خمسة قبور، ثلاث نسوة ورجلين، منها قبر خديجة بنت خويلد رضي الله عنها بمكة، وأربع بالمدينة، قبر ابن خديجة كان في حجر النبي ﷺ وتربيته، وقبر عبد الله المزني الذي يقال له: ذو البجادين، وقبر أم رومان أم عائشة بنت أبي بكر الصدِّيق، وقبر فاطمة بنت سعد رضي الله عنهم جميعاً.

وها هو ذا جابر بن عبد الله بن حرام يروي لنا ما حصل يوم وفاة فاطمة بنت أسد يقول جابر رضي الله عنه:

بينا نحن جلوس مع رسول الله ﷺ، إذ أتاه آتٍ فقال: يا رسول الله، إن أم علي وجعفر وعقيل قد ماتت، فقال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلى أمي**»، فقمنا وكأن على رؤوس من معه الطير، فلما انتهينا إلى الباب، نزع قميصه فقال: «**إذا غسلتموها فأشعروها إياه تحت أكفانها**».

فلما خرجوا بها جعل رسول الله ﷺ مرة يحمل، ومرة

يتقدم، ومرة يتأخر، حتى انتهينا إلى القبر، فتمعَّك ـ تمرَّغ في التراب وتقلب فيه ـ في اللحد ثم خرج فقال:

«**أدخلوها باسم الله وعلى اسم الله**» فلما أن دفنوها قام قائماً فقال: «**جزاك الله من أم وربيبة خيراً، فنِعم الأم ونِعم الربيبة كنتِ لي**».

قال: فقلنا له أو قيل له: يا رسول الله، لقد صنعت شيئين ما رأيناك صنعت مثلهما قط، قال: «**ما هما؟**» قلنا: نزعك قميصك وتمعكك في اللحد.

قال: «**أما قميصي فأريد ألا تمسها النار أبداً إن شاء الله تعالى، وأما تمعكي في اللحد فأردت أن يوسع الله عليها في قبرها**».

وجاء في رواية ثانية، أن رسول الله ﷺ اضطجع في لحدها ثم قال: «**الله الذي يحيى ويميت وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسِّع عليها مدخلها، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين**»، ثم كبَّر عليها أربعاً، فأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنهم.

فهل يطمع أحد بتكريم أكبر من هذا وأعظم؟ غير أن فاطمة بنت أسد كانت جديرة به وأهلاً له، ورسول الله ﷺ خير من ينصف الناس، ويعطيهم ـ بعد الله ـ ما يستحقون.

وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه: لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي رضي الله عنها دخل عليها رسول الله ﷺ، فجلس عند رأسها فقال: «**رحمك الله يا أمي، كنت بعد أمي تجوعين**

وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيباً وتطعميني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة».

ويقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

لما ماتت فاطمة أم علي ألبسها النبي ﷺ قميصه، واضطجع معها في قبرها، فقالوا: ما رأيناك يا رسول الله صنعت هذا، فقال:

«إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرَّ بي منها، وإنما ألبستها قميصي لتُكسى من حلل الجنة، واضطجعت معها ليُهَوَّن عليها». وذكر القرطبي: أن الله سبحانه وتعالى قد خصَّ رسوله الكريم محمداً ﷺ بأنه لا يضغط في قبره، وقد سلمت فاطمة بنت أسد من ضغطة القبر ببركته ﷺ، حيث اضطجع عليه الصلاة والسلام في قبرها. وجاء في كتاب: «الوفا بأخبار دار المصطفى» أن رسول الله ﷺ قد دفن فاطمة بنت أسد بن هاشم بالرَّوْحاء في المدينة المنورة، رحمها الله وأسكنها دار المتقين، مع الأبرار والصالحين.